مسائل الجهاديين الانتحاريين : كتب جديدة

أحمد رشيد *

بعد أحداث 11 سبتمبر عام 2001م عرف القراء ومشاهدو التلفزيون في العالم كلّه معنى الجهاد في الإسلام، وكيف استعمل ذلك كلّه المتشددون من أتباع القاعدة. لكنّ الكتابة عن الجهاد في السنوات الماضية ما توقّفت عند حد، وهي تملأ الآن رفوف المكتبات. والجهاد مندوبٌ أو مستحبٌّ في الإسلام، وليس فرضاً كالصلاة والصوم. لكنّ المتشددين اعتبروه فرض عين ونفّذوه بتلك الطرق المفزعة. وهو في أصله اللغوي والشرعي مفتوح على شتى التفسيرات. فالمجاهدة بذل الجهد في القتال وفي الأعمال الصالحة. وهناك الجهاد الأصغر، المعني بسلوك المسلم الحسن، والجهاد الأكبر المعني بالدفاع عن الأمة، وعن دار الإسلام. وتحتوي مجموعات الحديث النبوي المختلفة – والتي كُتبت جميعاً بعد وفاة النبي طبعاً فصولاً في الجهاد. ولذا فقد كان النقاش بشأنه عبر التاريخ الإسلامي نقاشاً في ماهيته وشروطه ومعناه أكثر مما هو في طرائق وظروف تنفيذه.

وقد حظي الجهاد الأفغاني ضد الجيش السوفياتي في الثمانينات بدعم الولايات المتحدة والغرب. وقد شارك في الجهاد الأفغاني حوالي الـ40 ألفاً من غير الأفغان فأعطوه صبغة إسلامية عالمية. وكان أكثر هؤلاء يُعطون السلاح ويتلقّون التدريب بدعمٍ وإنفاقٍ من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، ومن جهاز الاستخبارات الباكستاني (ISI) . وقد استُشهد بعض هؤلاء، في حين عاد البعضُ الآخَرُ إلى بلدانهم حاملين معهم (رسالة الجهاد) التي تعلموها في المدارس والجامعات التي ظهرت بباكستان، مثلما حدث في بيشاور. وتراجعت سمعة (الجهاد) بتراجُع ممارساته في التسعينات حين أقبل المجاهدون الأفغان على مقاتلة بعضهم من أجل السلطة، وفعل الشيءَ نفسَه جهاديون كثيرون في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي. أما أسامة بن لادن فقد قرر عام 1996م أن يشن حرباً جهادية على الولايات المتحدة من أفغانستان. وما تنبه إلى ذلك أحدٌ، فقد انشغل الغربُ عنه؛ في الوقت الذي أقبل ذاك العربي على جمع الناس وتدريبهم من أجل الحرب الدائمة ضد أعداء الإسلام من وجهة نظره. أما الانتحارياتُ الجهاديةُ فقد كان رائداً فيها ثوار كشمير ضد الحكم الهندي. وأعانت الفوضى الصومالية كلّ الذين يريدون مقاتلة الغرب وإقامة حكم الله في الأرض. وشجّع فشل محاولات السلام في فلسطين آخر ولاية كلنتون على السير في الطريق الانتحارية أيضاً.

وبين يديَّ هنا كتابان يتحدثان بطريقةٍ منهجيةٍ دقيقةٍ وواسعة الاطّلاع عن نشوء الأفكار المتطرفة حول الجهاد وممارساته أواخر التسعينات. **أولهما** كتاب عمر الناصري المسمَّى: بداخل الجهاد (Inside the Jihad) وهو شابٌّ عمل جاسوساً لاستخباراتِ

عربيةٍ، واخترق صفوف المجاهدين فتابع خططهم وممارساتهم وشخصياتهم. والكتاب الآخر تأليف برينيار ليا – وهو كاتبٌ نرويجي – بعنوان : مهندس الجهاد العالمي أو الشامل. ويقصد بذلك استراتيجي القاعدة المعروف باسم أبو مصعب السوري، الذي أسر بباكستان عام 2005م، وسُلّم للولايات المتحدة، ولا يُدرى مكانُه الآن. وكلا الكتابين يتحدثان عن أُناسٍ تدربوا أيديولوجياً وعلى العمل السري والمسلّح بأفغانستان في النصف الأول من التسعينات وقبل أن تصل القاعدة إليها عام 1996م. وما كان أكثر هؤلاء من خريجي المدارس الدينية، بل الذي حصل أنّ أسلوب الحياة والمغامرة اجتذبهم، وأرادوا أن يلقّنوا العالم درْساً من صُنْعهم هم كما تصوروا الأمر. ولو أنّ الأميركيين والحكومات العربية والإسلامية، هؤلاء جميعاً لو تنبهوا بعد نهاية الحرب الأفغانية، لأمكن أن يدرّبوا هؤلاء الشباب على نشاطات ومهارات أكثر جدوى. لكنّ ذلك لم يحصل. وعندما جرت محاولاتٌ بعد ذلك كان الوقتُ قد تأخّر وصارت السلطات قيد العمل والتجنيد وبجاذبيةٍ شديدة. ورجع ابن لادن إلى أفغانستان عام 1996م وجمع الشباب من المعسكرات من حوله، وأفهمهم باعتباره القائد أنّ الجهاد حربُ أبديةٌ على الغرب. وعندما حدثت الهجمات من جانب القاعدة على سفارات أميركية بإفريقيا عام 1998م، وقُتل فيها مسلمون أكثر من الأميركيين. كان ابن لادن يشرعن قتل المسلمين الآخرين، وقتل المدنيين، رغم وضوح القرآن في تحريم ذلك تحريماً باتاً وبخاصةٍ النساء والأطفال. ولا يبدو أنّ أحداً يومها أدرك كم حرَّف ابن لادن الإسلام. وما كان لذلك من ناحية أخرى علاقةٌ بالحصول على نفوذٍ أو سلطة. لكنّ الجهاد صار أيديولوجيا هجومية أو أنه حربٌ شاملةٌ لا تأبُه لشيء، ولا تقف عند حد، وتريد الشهادة ولا شيءَ غير! وهذا رغم أنّ القرآن يحرّم الانتحار أيضاً. فحتى بدء ابنِ لادن بقلب الآيات رأساً على عقب، ما كان الانتحار أو القتال حتى الموت ممكناً إسلامياً! لاّ باعتباره الحلَّ الأخير لفردٍ أو جماعة مُحاصَرة من العدوّ، وفاقدة للأمل، وليس الانتحار الهجومي المخطَّط له بدون حصارٍ ولا عدوٍ مُحاصِر. ولذا فإنّ هذه التطورات عنتْ في الحقيقة قولاً بالإرهاب أو شرعنة له باسم الإسلام.

قبل 11 سبتمبر شنت القاعدة هجمات انتحارية. لكنها عملت أيضاً بالأساليب الحربية التقليدية، وأسلوب حرب العصابات في دعم طالبان، أو دعم مجاهدي كشمير أو أُمراء الحرب الصوماليين. لكنها بعد 11 سبتمبر، وإن تكن ما تزال تشن هجمات في العراق أو أفغانستان؛ فإنّ مَثلها الأعلى ونموذجَها صار الهجمات الانتحارية ولا شيءَ غير. وبحسب هذا المنطق الغريب ليس المقصود هزيمة الأعداء، ولا الوصول للسلطة بل الموت استشهاداً والذهاب إلى الجنة. وهكذا يقول (المجاهدون) في التسجيلات التي تُحفظ لما بعد استشهادهم: أنتم الأميركيون تحبون الحياة، ونحن نحب الموت في سبيل الله! ولذا بدا الإسلام لأعوامٍ بعد العام 2001م باعتباره أيديولوجيا للمجانين ومحبي الانتحار لأسبابٍ مَرَضية. وتصاعدت موجات كراهية الإسلام في أنحاء العالم؛ في الوقت الذي كان فيه الشبان ذوو الأمزجة الخاصة أو المُغامرة يتحشدون من حول القاعدة وقائدها وينتظرون دورهم في الانتحار الاستشهادي. وبذلك فقد صار ذاك بمثابة الحلقة المفزعة والمرعبة في

الوقت نفسه.

وإلى هذا التغيير في معنى الجهاد وتطبيقاته يشير مِايكل بونّر في كتابه: الجهاد في التاريخ الإسلامي. يذهب Bonner إلى أنّ الإسلام الأول إنما نجح في تكوين جماعةٍ قويةٍ ومتضامنةٍ لاهتمامه بالمسألة الاجتماعية، والعناية بشأن الفقراء. وقد كان ذلك تغييراً سياسياً (تكوُّنُ الجماعة) واجتماعياً (الاهتمام بالفقراء والمساكين والعبيد). وبخلاف الإسلام القديم فإنّ الدول الوطنية الحديثة ما اعتبرت مكافحة الفقر من أولوياتها؛ وفي ذلك تجاهُلٌ للمعنى الأول للإسلام. لكنّ المجتمعات الإسلامية نفسها تهتم للفقر والحاجة من خلال الزكاة التي تؤدَّى سنوياً والصَدَقات ووجوه الإنفاق من أجل الخير وتضامُن الجماعة. وفي حين صار الجهاد في الأزمنة الكلاسيكية أيديولوجيا فتح وإمبراطورية؛ فإنه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحول إلى ممارسة دفاعية ضد المستعمرين الروس والبريطانيين والفرنسيين وبحسب Bonner ما عرف المسلمون خلال القرنين الماضيين، في كل كفاحهم ضد الاستعمار، أو حتى إنشائهم للدول بإفريقيا ممارسات الانتحار باسم الجهاد، رغم أنهم مروا بظروفٍ أصعب من الظروف الحالية. وطوال السنوات العشرين للجهاد الأفغاني ما كانت هناك هجمات انتحارية. وإنما حدث ذلك بعد العام 2001م ومن جانب ابن لادن والقاعدة. ونعرف لأول مرةٍ هجوماً انتحارياً لطالبان عام 2004م، ثم تزايدت الانتحاريات بعد ذلك حتى جاوزت المائة في العام 2007م. والواقع أنّ القاعدة هي التي أنتجت الانتحاريات، وصارت نموذجاً للآخرين بما في ذلك طالبان التي تستطيع الآن التعويض على أهالي الذاهبين انتحاراً بالأموال التي تحصُل عليها من تجارة المخدرات المتصاعدة! والتراجيدي فيما يحصل منذ ثلاث سنوات أنّ أهداف الانتحاريين يمكن أن تكون من النساءِ والأطفال. ففي 6 نوفمبر عام 2007م، هاجم انتحاريٌّ في بغلان بشمال أفغانستان مدرسة فقتل 59 طفلاً، وجرح مئات، كما قتل عشرات المدنيين. ومنذ ذلك الحين تُهاجَمُ المدارسُ دائماً مما اضطر السلطات إلى إقفال ثلثها حتى اليوم، بعد مقتل 150 مدرَّسا وتلميذاً.

وفي كتاب روبرت كروز وأمين طرزي بعنوان: طالبان وأزمة أفغانستان، يروي الكاتبان قصة تجدد نشاط طالبان وحصولها على متطوعين جدد من طريق تجارة الأفيون بدءًا بالعام 2004-2005م. ثم في العام 2006م جاء مدرّبون من العراق لبناء الشبان وتحريضهم على الانتحار، فازدادت الهجمات الانتحارية حدوثاً وما تزال. ويذهب عبد القادر شوقي مقالته بكتاب طرزي وكروز إلى أنّ الأميركيين أخطأوا في أفغانستان بالبدء ببناء الدولة، بدلاً من تفكيك البُنى القبلية السلطوية لدى البشتون، فهل على طالبان العودة للحياة بعد الهزيمة.

وفي كتاب أنطونيو Guistoggi بعنوان: الكلاشنيكوف والقرآن والكومبيوتر المحمول، هناك وصفٌ تفصيليٌّ لنجاحات القاعدة في إنهاض طالبان بأفغانستان، وطالبان بباكستان، من طريق الهجمات الانتحارية والتدريب عليها. وقد كانت أكبر نجاحات طالبان باكستان قتل بينظير بوتو في 27 ديسمبر عام 2007م قبل الانتخابات. وقد حدثت هجماتٌ ضد

قوات الأمن قبل ذلك وبعده. وبلغت الضحايا المئات في العام 2007م، والشهور الأربعة الأولى من العام 2008م. ويأتي الانتحاريون عادةً من الأيتام، أو من ذوي الأمراض العصبية، أو من المنفيين والذين هرب أهلهم من العنف من أفغانستان إلى مناطق البشتون في باكستان. ويؤخذ الصغار من (المدارس) ويُدرَّبون من محطةٍ لأخرى قبل التنفيذ. والتنظيمان بأفغانستان وباكستان مستقلٌ أحدهما عن الآخر، لكنَّ التنسيق بينهما يجري بواسطة القاعدة، وبعض القياديين الذين يتنقّلون. وبحسب معلومات الاستخبارات الغربية فإنّ أكثر النشاط الإعدادي يجري على الجانب الباكستاني من الحدود. وفي العادة فإنّ الانتحاريين من طالبان باكستان هم باكستانيون صغار. أمّا في أفغانستان فيأتون من جنسياتٍ مختلفة أكثرها غير أفغانية، وكان آخرهم شاب ألماني من أصول تركية هاجم بسيارته في خوست مخفراً أميركياً فقتل جنديين، وجرح كثيرين أميركيين وأفغان. وأكبر مشكلات الانتحاريين: عدم وجود المتفجرات الجيدة أو القوية وقلة الأهداف التي يمكن بلوغها وتفجيرها: وما يحصل بأفغانستان وباكستان حصل من قبل ويحصل الآن بالعراق. فمعدل الانتحاريات هناك كان 10 في الشهر عام 2007م، وقد بلغ 18 في العام 2008م شهرياً، وذكر عدد النساء فيه. وقد صار معتاداً إلى حدّ أنّ الذين يقاتلون بأسلوب حرب العصابات يرتدون حزاماً ناسفاً أيضاً. وليس فقط لكي يستطيعوا قتل الأعداء حتى وهم يموتون؛ بل ولأنّ مثال ونموذج (الشهادة) من طريق الانتحار ما عاد يمكن تخطّيه!

والواقع أنّ القاعديين وخصومهم يعرفون على حدٍ سواء أنّ الانتحاريين لا يمكن أن تُكسَبُ بهم الحرب، ولا أن يخرج الأميركيون من أفغانستان والعراق. ولذلك فإنّ قصدهم نشر الرعب والفوضى بين الناس المحليين بحيث لا تقوم الدولة الجديدة، ولا يستطيع السياسيون والقادة الجدد كسْبَ الناس، ما دام القاعديون قادرين على إيجاد شبان وفتيات مستعدين للموت. لكن من جهةٍ أخرى، ورغم عدم شعبية القاعديين لدى الناس العاديين؛ فإن علماء الدين والسياسيين ما بذلوا جهوداً كبيرةً ضدّ القاعدة، رغم قولهم جميعاً بتحريم الانتحار، وقتل المدنيين: وقد أراد الأميركيون إنتاج (إسلامٍ معتدل)، لكنّ التعبير غامض، والأميركيون مكروهون في تلك البلدان، وبخاصةٍ في النواحي التي يحتلّونها: ويقيمون قواعد فيها. وربما كان تعبير (الليبراليين المسلمين) أفضل، لكنّ هؤلاء إنما يناضلون ضد التطرف والعنف، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون الدفاعَ عن احتلال بلدٍ مسلم. ولذا وبحسب أحمد رشيد لابد من جهودٍ من جانب الحكومات من أجل الاستقلال والحرية ودعم المجتمع المدني، بحيث تستطيع الجماعات الليبرالية التقدم بأفكارها واقتراحاتها. والذي فعله الأميركيون لا ينفع على الإطلاق، أي نشْر الديمقراطية في أقطارٍ يحتلّونها! وتقسيم الناس إلى معتدلين ومتطرفين. أمل الأموال المدفوعة فما ذهبت للتنمية والتطوير وتلبية احتياجات الناس. فمن الـ10 بليون دولار لباكستان منذ العام 2001م ذهب الأكثر للجيش. وفي أفغانستان تنفق الولايات المتحدة 1 بليون في الشهر، وفي العراق 9,8 بليون شهرياً، وفي الأكثر على جيوشها ونجاح حملاتها، وبناء قوات أمن محلية. وما ساعدت الولايات المتحدة كثيراً على بناء وتقوية المؤسسات التي حرصت على إقامتها وبخاصةٍ المؤسسات

المدنية. وفي باكستان اختارت أن تقف للآخر مع الجنرال برويز مشرَّف، والذي اضطر أخيراً للاستقالة بعد ديكتاتوريةٍ استمرت تسع سنواتٍ مظلمة.

وبالعودة إلى كتاب عمر الناصري، فإنه يذكر ذهابه إلى أفغانستان عام 1995م لوقوعه تحت تأثير الجهاديين الجزائريين. وهناك تدربٍ على السلاح، لكنْ قيل له إنه لا قتل للنساء والأطفال، ولا هدم للكنائس...إلخ. ثم تغير كلٌ ذلك من جانب القاعدة. واتصل الناصري بالمخابرات الفرنسية والبريطانية فالألمانية. وهو يشكو من أنهم لم يأبهوا كثيراً لهذا النشاط المحموم. وعندما وقعت واقعة العام 2001م أقبل مصدوماً على كتابَة هذا الكتاب.

ويتتبع الكاتب النرويجي برينيار ليا B, Lea في (مهندس الجهاد الشامل) حياة مصطفى بن عبد القادر ست مريم نصّار الشاب السوري، الذي كان صحفياً ويعشق التاريخ، لكنه في نظر الكاتب ربما كان الأكثر ذكاءً واطّلاعا بين مَنْ جندتْهُمُ القاعدة. ويرى السوري بحسب مذكراته أنه لا من أرضٍ لإقامة الدولة الإسلامية عليها. ولذلك فقد كان ضد هجمات 11 سبتمبر لأنها عرَّضت طالبان لانتقام الأميركيين. وقد قُبض عليه ببلوشستان. وربما زوَّد الاستخبارات بمعلوماتٍ وفيرةٍ ليس عن الساحتين الباكستانية والأفغانية وحسْب؛ بل وعن الساحة الأوروبية التي عمل فيها لسنوات.

ويتحدث دانييل بايمان Byman في كتابه: (حرب الجبهات الخمس) عن السياسات الأميركية تُجاه القاعدة قبل 2001م وبعدها، ويرى فيها أخطاء وكوارث. وهو يؤكد أنّ القاعدة تريد من جديد الحصول على أرض لإنشاء الخلافة العالمية، وربما في أفغانستان. ولذلك فهو يرى أنّ حرب العراق كانت كارثة لأنها قوّتْ الإرهابيين، ووزعت الجهود الأميركية ضد الإرهاب، فجعلتها أقلّ فعالية. ويلاحظ بايمان Byman أنّ دعاية القاعدة في العالم الإسلامي كانت أكثر نجاحاً من دعاية الأميركيين.

أما الكتاب الأخير الذي يستحقُّ الذكر فهو كتاب فيليب غوردون. بعنوان: (كسْب الحرب العادلة). وهو يرى منذ البدء أنّ طريقة أميركا في الحرب غير صحيحة، فهي تعتمد على القوة العسكرية، بينما الأخير الدبلوماسية وعمل الاستخبارات. ومن ضمن الدبلوماسية ضرورة التصدي لحل مشكلات الشرق الأوسط. ومن ضمن عمل الاستخبارات التنسيق أكثر مع الشرق أوسطيين ومع الحكومات في شرق آسيا. وكل هذه الأمور، والتي بدأت إدارة بوش بعضها القليل، سوف تقع بمجملها على عاتق الإدارة الجديدة، للرئيس الأميركي الآتي بعد الرئيس بوش.

****

*) أحمد رشيد صحفي باكستاني معروف، مختص بالحركات الإسلامية في شبه القارة الهندية وأفغانستان وآسيا الوسطى. له كتبٌ عن طالبان، وعن آسيا الوسطى وأفغانستان. وما ننشره هنا قراءةٌ قام بها لمجلة: New York Review of Books, Vol.LV-Nu.10 (2008) لستةٍ كتبٍ في الجهاد المعاصر وعنه صادرة في العامين 2007

و2008م.